البنية الزمنية للرحلة العياشية مـــاء الموائد

ب. بناهض عبد الكريم

جـامعة تلمسان

abdelkrimbanahed01@gmail.com

ملخص البحث

حظي الزمان باهتمام الفلاسفة والمفكرين؛ لأنه يتضمن جملة من الثنائيات المتناقضة المتعلقة بالكون والحياة: كالوجود والعدم، والثبات والحركة، والحضور والغياب، والزوال والديمومة، وقد كان له حضور قوي في السرود العربية القديمة وعلى رأسها الرحلة ،وقد تجسد في إحداها وهي الرحلة العياشية فكان بين زمان الأحداث كما حدثت بالفعل وزمن الكتابة وبين زمان القراءة والزمن الواقعي والزمن المعيش ،وفي ظل هذه التجاذبات يقع المتلقي ضحية الترهين ،فيحاول العياشي الالتجاء إلى ما يسمى(حسب جيرار جينيت) بالقطع والحذف والخلاصة والنتيجة ليساير القارئ توالي الاحداث ،والزمان في الرحلة العياشية واقعي بحكم انتقال السارد بشخصه ولم يكن تخييليا.

الكلمات المفتاحية:الزمن –العياشية –ماء الموائد –الرحلة –السياق،اللغوي.

مقدمة:

ارتبط وجود الناس على سطح الأرض بالحركة والتنقل فبفضلهما تمكن من الحصول على قوته والابتعاد عن الأماكن الخطرة، فهو في رحلة مستمرة يبحث من خلالها عن واقع أفضل لحياته في جميع مجالاتها. وبعد استقراره وتحسن ظروف حياته لم يتخل عن الرحلة والسفر وهذا يعود لغريزة إنسانية أصيلة وهي حب الاستكشاف واختراق الآفاق.

لقد أرخت الرحلة لتاريخ البشرية وفتحت عيونهم على عوالم أخرى، وقد حرص الرحالة فيما بعد على تدوين خلاصة مشاهداتهم وما لاقوه أثناء أسفارهم، فجاءت أعمالهم حافلة بالمعلومات التاريخية والحضارية، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الرحالة

—هيرودوت — وهوميروس ،. ومن العرب اشتهر ابن بطوطة وابن خلدون. والإدريسي واليعقوبي والعبدري حتى غدت الرحلة فنا قائما له مبادئه وخصوصياته. ونشير إلى أن الرحلة ذات علاقة مباشرة بالأدب ،لأن الأسلوب الذي استخدم في صياغتها ارتفع بها إلى عالم الأدب ،فهي تعتمد أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق والمؤثر للتعبيرات السهلة المؤدية للغرض. .والرحلة عادة تحفل بالمقومات الأساسية للقصة من فكرة رئيسية وبناء وحبكة وبنية زمانية ومكانية..أو ما يعرف بالبنية السردية.

وقد اخترنا عنصر البنية السردية وهو الزمن..في إحدى الرحلات المغربية وهي رحلة أبو سالم العياشي ماء الموائد. وفق إشكال مفاده: ما مميزات الزمن الحكائي في الرحلة العياشية ؟..وما مدى التوافق بين زمن القصة أو الأحداث وزمن الخطاب.؟

1،مفهوم الرحلة ، لغة واصطلاحا:

جاء في معجم مقاييس اللغة ما مفاده "رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في سفر، يقال: رحل يرحل رحلة، ورحل رحيل: ذو رحلة، إذا كان قويا على الرحلة، والرحلة الارتحال، وقولهم لما ابيض ظهره من الدواب: أرحل، فهو من هذا أيضا لا يشبه بالدابة التي عليها رحل، ويقال أرحلت الإبل = سمنت بعد هذا والراحلة: المركب من الإبل سواء كان ذكرا أو أنثى"(1)

إما الجوهري في معجمه صحاح العربية عرفها كما يلي:

'رحل، الرحل: مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث، والرحل أيضا رحل البعير... والجمع رحال، ومنه قولهم في القذف بابن ملقي أرحل الركبان... ورحلت البعير أرحلة رحلا، إذا شددت على ظهره الرحل، قال الأعشى :

رحلت سمية غدوة جمالها غضبي // عليك فما تقول بجمالها ويقال رحلت له نفسي إذا صبرت على أذاه، ورحل فلان وارتحل وترحل بمعنى والاسم الرحيل، أبو عمر: الرحلة بالضم الوجه الذي تريده. (2)

المفهوم الاصطلاحي:

فهي " مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباع المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض البعض فيها لوصف ما يراه من عادات وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"(3) وأما احمد الفاضل فقدم تعريفا آخر حيث يقول" هي فن عريق من الفنون النثرية التي ضمنها كتابها أخبار أسفارهم وسياحتهم ومغامراتهم البرية والبحرية وما انطوى عليه من غرائب وعجائب وما قاسوه في ثنايا تلك الرحلات من الفظائع والأهوال وما شاهدوه في البلدان والأصقاع والمناطق التي دخلوها من أحوال ساكنيها وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ونظمهم السياسية ومظاهر عمرانهم "(4) وتنقسم الرحلة حسب الهدف المنشود إلى: الرحلة السياحية، الرحلة العلمية – الرحلة الخيالية – الرحلة الفهرسية – الرحلة الاستكشافية – الرحلة الحجية أو الحجازية...الخ(5).

2، أبو سالم العياشي ورحلته ماء الموائد:

يعد أبا سالم العياشي من أبرز الشخصيات المغاربية التي ذاع صيتها قديما وحديثا فهو"أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي ولد في أواخر شهر شعبان 1037هـ/1628م في قبيلة آيت عياش وهي قبيلة بربرية تتاخم بلاد الصحراء من أحواز سجلماسة، ويعتبر أبو سالم العياشي من أبرز علماء الأسرة العياشية فهو الأديب والرحالة والفقيه والصوفي والداعية إلى تعاليم الإسلام السمحة والمحارب للبدع التي استشرت في المغرب في تلك الفترة، تعلم بالزاوية العياشية ثم التحق بالزاوية الناصرية ثم جامع القرويين ،من أشهر مؤلفاته: إتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الإجلاء واقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر،وقد قام برحلات ثلاث :الأولى في شهر ربيع النبوي 1053هـ/1643م والثانية أواخر ربيع النبوي 1064هـ/1658م والثالثة والأخيرة والموسومة:ماء الموائد وهي أفضل رحلاته دون فيها خلاصة تجربته في الحجاز"(6).وهي تضم شتى أصناف العلوم والمعارف.

الرحلة العياشية (ماء الموائد):

وقد كان خط سير الرحلة حيث "انطلق من سجلماسة مرورا بالمغرب ثم الجنوب الجزائري فالجنوب التونسي فطرابلس فالقاهرة فالحرمين الشريفين، ثم انتقل بعد ذالك إلى أهم المدن الشامية غزة، الرملة – بيت المقدس – الخليل "(7)، يقول العلامة عبد الهادي التازي "وتعد رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشارا لأنها أكثر مادة وأكثر تنوعا، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى..."(8) ،وهذا ما أكد عليه في بداية رحلته حيث أقر بأنها لن تكون مجرد وسيلة للترفيه فقط وإنما ميدان خصب لشتى المعارف حيث يقول "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون كتاب علم لا كتاب سمر وفكاهة وإن وجد الأمران فيهما معا فذالك أدعى لنشاط الناظر فيها "(9)، وقد راعى في رحلته مستوى القارئ وطموحه العلمي وهذا هو السر وراء التنوع المعرفي لهذه الرحلة.

كان وراء هذه الرحلة رغبة قوية لدى أبي سالم لزيارة البقاع المقدسة رغم ألم الغربة والفراق الذي قد يعانيه أثناء ذالك فهو يعزي نفسه في بداية الرحلة بأبيات شعرية حيث يقول: "

ذريني ارد ماء المفـــاوز آجنا حيث مـــــاء للكرام معين

دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الرسول دفين"(10)

وإن من بين ما وضعه هدفا لرحلته<<ما يشترك في معرفته عام الحجاج وخاصهم من أوصاف المسالك وتعداد المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذالك مما لا تطمح إليه عيون الفضل وترتاح لذكرهم أهل النبل من لقاء المشائخ الفضلاء وحاضرة الأدباء والنبلاء ومباحثة الأذكياء وزيارة الأتقياء"(11)

3، البنية الزمنية للرحلة في السرد:

ارتبط وجود الناس على وجه الأرض بالزمان لأنه مرتبط بالحركة "وقد لاحظ وجود هذه الحقيقة من خلال المتغيرات حوله في السماء بشمسها وقمرها ونجومها

وفي الأرض بزروعها وحيواناتها وطيورها ،إن كل ما في الكون يعيش الزمان بالحركة، وكما يقول القدماء والمحدثون من الفلكيين ،إن الزمان هو مقدار حركة الفلك ،وهذه الحركة التي يقاس بها الزمان هي حركة الكواكب مثل الشمس والقمر والكائنات. "(12) يهتم الدارسون بمسألة الزمن، فكل ينظر إليه من الزاوية التي تناسب الهدف الذي يصبو إليه، وقد أخذ حيزا كبيرا عن النقاد المهتمين بالدراسات السردية فهو عنصر هام وأصيل بالنسبة لهم، وأطلقوا عليه اسم الزمن السردي (زمن الحكي) "، يفرق بعض اللغويين بين مصطلحي الزمان والزمن "فالأول يقابل ما نعرفه في الإنجليزية باسم " timeالذي يقاس بالثواني والساعات والأيام والشهور ،ويعبر عنها بالأسماء الدالة على أوقات الزمان ،والثاني يقابل ما نعرفه في الإنجليزية باسم tense أي الزمن اللغوي الذي يعبر عنه بالصيغ الصرفية والسياقات اللغوية "(13) فالتعبير يوجد في كل ما يتغير بينما يوجد الزمان في كل شيء على السواء يمكن أن يكون التغيير سريعا أو بطيئا بينما لا يمكن للزمان أن يتضمن السرعة لأن لا يكون مهددا بأن يعرف نفسه ما دامت السرعة تنطوي على الزمان، يقول أرسطو " حين ندرك الحركة فإننا ندركها والزمان معا، وبالعكس أيضا حين يعتقد أن بعضا من الزمان قد انقضى يبدو لنا أن حركة معينة أيضا قد حدثت معه"(14) فيستبعد أرسطو مسألة تجرد الزمان فهو مصاحب لحركة ما فإذا لم يكن هناك إدراك للحركة فلا وجود للزمان ذاته من دون الحركة إذا الزمان ليس هو بحركة ولا مستقل عن الحركة "

والزمان في تعاقبه قائم على ثنائية (قبل وبعد) أي الزمان الماضي والمستقبل حسب رأي أرسطو في تعريفه لمسألة الزمان. (15) بعد ثنائية الماقبل والمابعد، والحاضر واللاحق، الماضي والمستقبل، من المفاهيم المرتبطة بالزمان في تعاقبه، ففي لحظة السرد والحكي يكون السارد بين هذه الثنائيات المتلازمة وهي " تقسيمات أساسها الذاكرة والتوقع فالذات في الحاضر تبني تميزها للزمن على أساس تذكر الماضي وتوقع المستقبل إلا أنها تتعرض للخطأ والنسيان وغيرهما من معيقات جودة التذكر الذي ينتج عنه عدم دقة الحكي أو الكتابة، لهذا تستعمل الصيغ اللغوية الدالة على فك الزمن في سروده كما

قدمت للقارئ مروية أو مكتوبة إلا أن السارد حين يسرد حكايته لا يفعل ذلك بفضل ذاكرة جيدة بل يرى الماضي بفضل ملكة تفوق الملكة الإنسانية"(16)

الزمان المتخيل والزمان السردي:

علينا أن نفرق في حديثنا عن الزمن بين زمانين أولا: الزمان المتخيل أو زمن المتخيل السردي وهو ينبني على عناصر من نسج الخيال تخدم هدف الراوي أو السارد، والثاني الزمن الواقعي وهو مدار أدب الرحلة الواقعية (السفر)، حيث يكون الزمن في الرحلة واقعيا، لأن السارد أثناء تدوين الرحلة يكون في حالة تذكر لوقائع ماضيه، وقد يختلف في بعضها وهذا ما أشرنا إليه سابقا من كون الزمان يتأثر بالذاكرة وما يعتريها من نقص أو يصيبها من وهم. ويرى الدارسون أن" الزمن السردي المتصور كتتابع خطى الأحداث ليس إلا تشيدا اصطلاحيا ملائما، على نحو تداولي على حد سواء، فزمن النص إشكالي أنه بعد مكاني وليس بعد زماني...فليس للنص سلطة زمنية سوى تلك التي يستقيها على نحو كتابي من عملية القراءة في الواقع إذا ما تخيل عليه مناقشات زمن النص هو التنظيم المكاني الخطي للقطع اللسانية ضمن السلسلة المتصلة للنص وبالتالي قد لا يكون كل من زمن القصة إلا زائفا زمنيا على الرغم من ذلك، وما دمنا نتذكر طبيعتها الزائفة فكلاهما يظل تشييدا مفيدا لدراسة وجه مهم للقصة. "(17) ،فالنص يفرض سلطة على الزمن من خلال ترهينه كاختزال فترة زمنية طويلة بين دفتي كتاب.

فالزمن بالنسبة للنص قد يكون وهمي يستفيد السارد من عوالم الخيال لكن رغم ذلك يأخذ بعدا قريبا للواقع، وهذا نوع من المشاركة يمكن أن يعقدها السارد مع المتلقي حتى يعيش معه التجربة. فالزمن أنواع" فهناك زمن القصة أو الحكاية وزمن الخطاب أو زمن الحكاية فهو الزمن الذي تستغرقه الأحداث في تسلسلها الطبيعي في الواقع المفترض وفق النظام الطبيعي للزمن، وبعبارة أخرى فإن زمن القصة يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث، ولنقل بصورة أخرى أن الزمن كالخيط الذي ينظم الأحداث ويكون مستقيما خارج النص، ولكن داخل النص يمكن أن يلتوي...."(18).

النظام الزمني للسرد

يعتبر النظام الزمني للسرد نقطة فاصلة تميز الأعمال القصصية، فالإمكانات التي يتيحها التلاعب بالنظام الزمني لا حدود لها، ذلك أن الرتوي قد يبتدئ السرد في بعض الأحيان بشكل يطابق زمن القصة ولكنه يقطع بعد ذلك السرد ليعود إلى وقائع تأتي سابقة في تركيب زمن السرد من مكانها الطبيعي في زمن القصة، وهناك أيضا إمكانية استباق الأحداث في السرد بحيث يتعرف القارئ إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي، وهكذا فإن المفارقة إما تكون استرجاعا لأحداث ماضية أو تكون استباقا لأحداث لاحقة"(19) وهذا ما نلمسه في البرنامج الزمني للرحلة الواقعية فهي تقوم على استرجاع أحداث ماضية أو استباقا لأحداث أخرى بناء على معطيات معينة.

ورغم الخصوصيات السياقية للزمن فان الصيغ لا تفقد دلالاتها إذ أن القدرة على الترهين والتحيين الزمني الذي يقدمه السارد بناءا على نقطة الانطلاق والفقرات إلى الأمام والاسترجاعات إلى الوراء تتعدى الزمن اللفظي في حدوده اللغوية ولكن لا تلغيه وهذا ما يدفعنا إلى أن نثير قضية الزمن السردي والزمن الطبيعي أي الزمان التاريخي وزمن السرد أو الكتابة.(20) و يرى الباحثون أن" الزمن السردي والزمن المتصور كتتابع خطي للأحداث ليس إلا تشييدا اصطلاحيا ملائما على نحو تداولي على حد سواء.. فليس للنص القصصي سلطة زمنية سوى تلك التي يستقيها على نحو كتابي من عملية القراءة في الواقع. .."(21)

وفي سياق دراستنا لزمن الرحلة العياشية وجب الاعتماد على الوسائل الإجرائية في تحليل السرد المتخيل وتطبيقها على السرد القريب من الواقع، ويتناول الزمن برؤى مختلفة إذ أن العمل المسرود يشتمل على عدة أزمنة منها الأزمنة الخارجية(خارج النص) كزمن الكتابة وزمن القراءة ووضع الكتاب بالنسبة للفترة التي يكتب عنها والقارئ بالنسبة للفترة التي يقرأ فيها، والأزمنة الداخلية (داخل النص) وهي الفترة التاريخية ووضع الأحداث ووضع الراوي بالنسبة لوقوع الأحداث وتزامنها وتتابعها، والزمن الداخلي الذي هو شغل الدارسين أكثر من غيره. (22)

3، البنية الزمنية للرحلة العياشية :

تحتوي الرحلات كغيرها من النصوص السردية على أخبار وحكايات وغرائب وفق تسلسل زمني معين، فهي" تتصل ببعضها ويتولد بعضها الآخر سرد ذو امتداد طولي متزامن أو يلتحق إلى الوراء أو يثب إلى الأمام، وهذا ما يجعل السير الزمني غير منضبط بشكل حصري إذ يصبح متذبذبا بوعي وإدراك من السارد وبغيرهما، ذلك أن السارد، ذلك أن الزمن وعي خفي لكنه متسلط ومجرد ،لكنه يتمظهر في الأشياء المجسدة"(23) وهذه السلطة تجعله يفرض نفسه على من لا يعي كنهه.

لذلك تخضع بنية الرحلة العياشية من الناحية الزمنية لشخصية السارد، فهو الذي يعطي الإطار الزمني للرحلة، من خلال ما تقوم به هذه الشخصية من أفعال وما تنجزه من أقوال وأشعار وغيره فهو المتحكم في الفضاء الزمني والمكاني أيضا. تحمل هذه التركيبة الزمنية لرحلة العياشية في العناصر التالية:

ا، الترتيب: ويتمثل في ترتيب الوحدات ترتيبا أفقيا في الوحدات الكبرى (الانطلاق، الذهاب، الوصول) إلى البقاع المقدسة، العودة – الوصول إلى نقطة الانطلاق وليس فيها أي مفارقة زمنية بين خط سير الأحداث ،وخط قراءة الخطاب كالشكل التالي (24)

تمهيد	الذهاب	الوصول إلى البقاع	العودة	عودة إلى نقطة الانطلاق

وهناك وحدات صغرى وكبرى، حددها العياشي في اغلب الأحيان حسب المناطق التي زارها وأحيانا تبعا للأحداث المتسلسلة ويبلغ عددها " اثنين وستين وحدة مرتبة ترتيبا تتابعيا مثل (دخول توزر، الخروج منها) دخول بسكرة الخروج منها، فهي من أغراض الرحلة التي تسعى إلى تحديد معالم طريق الحج، محددة تحديدا زمنيا، وذكر الصعوبات التي تواجه المسافر والحاج"(25)

فعلى سبيل المثال يذكر العياشي في إحدى الوحدات الصغرى هذه المهمة وهي تحديد معالم السفر قوله "ذكر خروجنا من بلاد أوكرت... كان رحيلنا من هذه البلاد

صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادي الأولى قاصدين إلى (واركلا) وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج وأخذنا على طريق وادي امكيدن، ومعنا رجل من عرب الخنافسة اكتراه أمير الركب يدلهم على الطريق، ومواطن المياه كثيرة في هذا الوادي، قل ما يخلوا يوم من منهل وماؤه عذب غزير"(26).

ثم يسترسل ذاكر الصعوبات التي واجهوها مع هذه المنابع " إلا إننا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمد عرب توات خائفين من عدوهم من سعيد أن يغيروا عليهم فطمسوا ما في طريقهم من الماء لأجل ذلك....وسرنا في أيام بلغ بردها الغاية... إلى إن نزلنا عاشر يوم في قرية يقال لها والا. ....."(27) فذكر الصعوبات مع تحديد الزمن الذي يستغرقه أثناء الترحال كان مقصدا شريفا للرحلة العياشية، حتى أنه يشير إلى بعض النزاعات التي قد يجد المسافر نفسه طرفا فيها دون قصد فيضيع عن مقصده.

ففي هذه الوحدة (ذكر خروجنا من بلاد أوكرت) نلاحظ الترتيب الزمني جليا، فبدأ بذكر تاريخ الخروج من بلاد أوكرت (يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادي الأولى...) ثم ذكر الوجهة بلاد (واركلا)ن والطريق المناسب (طريق وادي امكيدن)، والصعوبات ومنابع المياه، وصوله إلى قرية (والا) بعد عشرة أيام من المسير، ثم ارتحل من قرية (والا) في وقت الضحى بينها وبين القليعة و سرنا نصف يوم.

- ثم ارتحلنا منها وأخذ الناس ماء أربع ليال.
- ثم ارتحنا غدا وطلعنا الحماد.
- ثم بتنا تلك الليلة وقد قل الكلأ.
- وتراءى لنا نخل واركلا.
- دخلنا المدينة عشية الخميس.

إلى أن ينهي هذه الوحدة وتبدأ وحدة أخرى وهي (ذكر خروجنا لمدينة طرابلس) (28)

وفي وحدة أخرى بعنوان :"ذكر دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفا وتعظيما " دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجة وأول يوم من السمائم كفانا

الله شر حرها ،ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الرابع ودخل الركب الشامي في السادس وبعضه في السابع ،وكانوا لقوا من الحرامية شدة في الطريق حتى كادوا أن يتعوقوا. .ثم دخل ركب العراق في اليوم الثامن بعدما رحل الناس إلى منى ،ولما نزلنا من التنية أنخنا الرحال بالحجون وسط المقبرة للضرورة وحططنا الرحال بين القبور إذ لم نجد مكانا سوى ذلك والأركاب قد ملأت خيامهم السهل والوعر ،ولم يسلم إلا أماكن القبور المبنية أو المحوط بها..."(29) ،حيص نلاحظ تركيز العياشي على تحديد التاريخ بدقة مثل خامس يوم. .اليوم الثامن. .لأن الهدف إرشاد الحاج بدقة وتعريفه بالزمن المستغرق للوصول للأمكنة المختلفة. وذالك بتحديد إطارها الزماني بدقة

الزمن المعيش أو الواقعي والزمن اللغوي

وعلينا ونحن بصدد الحديث عن الزمان علينا التفريق بين زمانين هما: الزمان المعيش والزمان الكوني حيث يرى بول ريكور " أن هذه الصيغة الثالثة من الزمان هي بطرق كثيرة مجرد ظل يلقيه على ممارسة المؤرخين... والوظيفة الأساسية لهذا الزمان العظيم هي تنظيم زمان المجتمعات وزمان الكائنات البشرية"(30) ،

الزمان المعيش (الواقعي):

تمثل في الفترة التي قضاها الرحالة أثناء الرحلة وما رافقها من أحداث وتفاعلات مثل قوله "ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية؟ وأكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة بالجو...:"(31) ،هذا الزمن يسمى بزمن الإنجاز أو إنجاز الأعمال ،حيث يشطر إلى تحديد برنامج الرحلة وفق برنامج محدد مرتب حسب الأولوية ؟،"ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى ،..."(32) ،يجب الإشارة إلى أن الزمن المعيش يختلف من شخص لآخر حسب التجربة فالمدرس زمنه بالساعات والدقائق فهو دقيق بينما الفلاح بطيء (الصباح –الظهر –العصر. ..).

الزمن اللغوي (الزمن النحوي والصرفي):

يتمثل هذا الزمن من خلال سرد الأحداث اعتمادا على أفعال لها دلالة الزمن ،ويفهم من خلال التراكيب المختلفة ،"ولقد اتخذ مفهوم الزمن دلالات كثيرة فاصطنعته حقول كثيرة من العلم ،فنلفيه مذكورا لدى النحاة بمعنى ولدى الفلاسفة بمعنى آخر ،فالزمن متسلط على الأشياء والأحياء ،وليس مقتصرا على ألفاظه مثل السنة –الشهر. أو الأزمنة النحوية (ماضي –حاضر –مستقبل)"(33) ،وإذا نظرنا إلى ارتباط الأزمنة بالأفعال أمكن أن نقول أن هذه الأزمنة تنتظم في نسق ،إلا أنه حين نقول أن الزمن مقولة لغوية ينبغي أن نفهم انه ليس مقولة لغوية لذاته، فالتوافق الذي نقيمه باعتبارنا متكلمين بين المقولات النحوية التي تمثلها أزمنة الأفعال ماضي حاضر مستقبل .."(34)، ويعتمد اللغويون على السياق في تحديد ماهية الزمن في الأفعال ،فعلى القرائن العقلية والحالية "أن تؤدي دورها في تحديد الزمن ،وأن علينا أن ننظر إلى السياق لنكشف عن السياق ،والسياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق"(35).

يعتمد الرحالة في تدوين رحلته على جمل تحيل إلى زمن التنقل أو السفر وما جرى فيه من أحداث ،وبما أن أبا سالم العياشي اعتمد على الاسترجاع أو التذكر كعملية لسرد أحداث الرحلة ،فالغالب على لغة السرد الجمل الماضية فهي تناسب عملية الاسترجاع مثل قوله "وبتنا في المنزل الذي اكتريناه ليلتين لقربه من المسجد اغتناما للطواف. ....وتركنا الخبال والإبل. ..خرجنا من مكة ضحى. ..وصلينا الظهر بمسجد الخيف..(36) ،فأغلب الجمل المعتمدة في السرد ماضية لملائمتها لاسترجاع الأحداث، فالمتتبع لنصوص الرحلة يلحظ بداية وحداتها بأفعال ماضية من قبيل. .خروجنا. ..مررنا. .أقمنا. .فالدلالة الزمنية لهذه الأفعال تحيلنا إلى الزمن الحقيقي لوقوع الأحداث في الرحلة. وأحيانا تتداخل الأزمنة فيعبر عن الماضي بفعل الحاضر إذ لا "غرابة أن الزمن الماضي آتيا في صيغة (فعل)أو (يفعل) ما دام يمكن بالقرينة معرفة الأزمنة "(37) ،فالسياق هو الذي يحدد زمن الفعل بخض النظر عن دلالته النحوية ،في هذا الصدد يقول العياشي "...إنه

يقول بتأثير القدرة الحادثة. .....ما يدل على نفي الأثر بعد القدرة "(38) ،على اعتبار أن كل الأزمنة التي وظفها العياشي في سرد أحداثه لها دلالة الزمن الماضي على اعتبار أن الرحالة يسترجع أحداث ماضية،مثلا قوله"ولنرجع إلى تمام الكلام على حال صاحب الترجمة فأقول: كتبت إليه قبل لقائي له بأبيات أستعير منه كتبا احتجت إليها في الوقت، فأعاريني ما طلبت منه. .."(39) حيث نلاحظ المزاوجة بين الفعل المضارع والماضي لكن السياق يحيلها إلى الزمن الماضي.و"الزمن الحاضر لا يستحيل إلى ماض إلا حين يذوب في ماضي المؤلف وروايته أو حكايته ،فيغتدي ماضيا بالقياس إلى حاضر المؤلف الذي يستحيل إلى مستقبل بالقياس إلى زمن الرحلة.."(40).

قد يتمظهر الزمن اللغوي شكل آخر عدا الذي ألفناه في دلالة الأفعال ماضي حاضر. .فهو يتجسد "في الإطلاقات المألوفة الدالة عليه في كثير من المعاني التي تصادفنا في الكتابة مثل الشيخ –الطفل –العجوز،والصبية ومثل الشجرة والفسل. .إذ الأسماء هنا ملتبسة بمعاني الزمنية ولا نستطيع الإفلات منها ،بل إن قولنا العجوز يحيلنا إلى طبيعة الشخص وعمره الذي لا يقل عن ستين سنة ،والصبية بدلالة البنت الصغيرة التي لم تبلغ الثاني عشر تقريبا.."(41) ،وقد كان توظيف العياشي للمصطلحات الدالة على الزمن منتشرا في ثنايا الرحلة خاصة ما تعلق بالعلماء مثل الشيخ. .بما تحمله من دلالة زمن الشخص أي عمره.

ولنأخذ مقطع نبحث فيه عن دلالة الزمن السياقية يقول أبا سالم في مقام الحديث عن أحد المشائخ"..ومنهم الشيخ المسن المعقولي المفسر الملا نافع العجمي، شهير الصيت عند علماء العجم وعند أرباب الدولة، تنثال عليه ميلاتهم في كل أوان.. ولا يحضر مجلسه إلا الأتراك أو من كان عارفا بلسانهم.."(42)،فكلمة الشيخ قد تدل على الشخص الذي له مقدار من العلم أو من أهل العلم وله مكانة بغض النظر عن سنه، لكن في هذا المقطع تدل على الزمن وهو عمر هذا الشخص ،وقد دل على ذالك لفظة المسن التي أعقبتها، وكلمة الأتراك تدل على فترة زمنية ازداد فيها النفوذ التركي.

الإيقاع السردي :

ونقصد به محاولة الرحالة اختزال الزمن ليوفر على القارئ عناء التيه داخل الزمن إن صح التعبير، فحسب جيرارد جينيت يجب إخضاع النص السردي إلى الإجراءات التالية لدراسة الإيقاع السردي وهي: الخلاصة –الحذف –القطع –المشهد.حيت نلمس هذه العناصر مجسدة في الرحلة العياشية على الترتيب:

الخلاصة :

وتعتمد الخلاصة في الحكي على سرد أحداث ووقائع يفترض أنها جرت في سنوات أو أشهر أو ساعات واختزالها في صفحات أو أسطر (43) فمثلا يذكر العياشي وهو يهم بالخروج من بلده قاصدا الحج " خرجنا من بلدنا والعجلة لنا حادية وعناية الله هادية صبيحة يوم الخميس... وبعد صلاة الصبح من يوم الخميس خرجت إلى زيارة قبر الوالد رضي الله عنه.... ثم خرجنا إلى مخيمنا حيث الخباء والرحل، ثم زرنا قبر الوالي الصالح سيدي عبد الله الماعزي الفادسي.... ثم أخذنا في الترحال عند طلوع الشمس"(44)

فالملاحظ للوهلة الأولى أن العياشي يسرد أحداثا بشيء من التفصيل يبدو للقارئ أن زمنها السردي مطابق للواقع، لكن في حقيقة الأمر لو دققنا في تفاصيل كل حدث لوجدنا الزمن يتجاوز حدود التعبير عليه، فمثلا قوله " زرنا قبر الوالد رضي الله عنه"، في الواقع زمن الزيارة أكبر بكثير مما يبدوا عليه زمن السرد، وهنا نلمس الخلاصة كعنصر مهم في اختصار الأحداث التي جرت في وقت كبير وهذا يساعد المتلقي على الاندماج مع الحكي.

ثم في مقطع آخر يسترسل العياشي في رحلته معتمدا على التلخيص" ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الأحمر ضحى وتسوقنا أولئك الأعراب بإبل في غاية السمن وغنم أخذ منها الناس حاجتهم...."(45) فالتلخيص الزمني للأحداث يجعل المتلقي عن وهم الزمن الحقيقي، ويبدو له الأمر مناسبا لما يقرؤه.

الاستراحة:

وتكون في مجال السرد وهي عبارة عن متنفس للسارد إن صح التعبير وهي " توقفات معينة يحدثها الراوي بسبب لجوئه إلى الوصف، فالوصف عادة يقتضي انقطاع السيرورة الزمنية، ويعطل حركتها. غير أن الوصف باعتباره استراحة وتوقفا زمنيا قد يفقد هذه الصفة عندما يلتجئ الأبطال أنفسهم إلى التأمل في المحيط الذي يوجدون فيه، وفي هذه الحالة قد يتحول البطل إلى سارد..." (46)، والرحلة العياشية كنص سردي تحتوي على العديد من المقاطع الوصفية، لأن العياشي كان يملك قدرة فائقة على وصف ما يثير انتباهه، فعلى سبيل المثال يصف مدينة طرابلس وقت دخولها مع ركب الحج " وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة ونكابتها للعدو شهيرة ومآثرها جليلة ومعايبها قليلة أنيقة البناء فسيحة الفناء عالية الأسوار، متناسبة الأدوار واسعة طرقها سهل طرقها، إلى ما جمع أهلها من ذكاء الأوصاف وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة...."(47)

فوصفه سليم بجميع النواحي ابتدءا من بياناتها وصولا إلى سكانها وطبائعهم، فالوصف بالنسبة للعياشي تقرير بيت فيه خلاصة مشاهدته دون زيف.

من خلال هذا المقطع نلاحظ فرقا واضحا بين السرد والوصف لكن التفريق بينهما على المستوى العلمي بسيطا" وهذا ما جعل جيرار جينت يعكف على دراسة طبيعة كل من السرد والوصف وقد وجد أن القانون الذي يخضع له السرد يخالف من ذلك الذي يخضع له الوصف، فإذا كان من الممكن الحصول على نصوص خالصة في الوصف فإنه من العسير أن نجد سردا خالصا...."(48) وهذا دليل على أن الراوي يلجأ إلى الوصف لقطع التعاقب الزمني، بل إنه يعطي للمسرود قيمة خاصة في نفس المتلقي.

وقد يصف العياشي الشيوخ ذاكرا مآثرهم " وهذا الشيخ رضي الله عنه من أحسن ما رأينا سمتا وعقلا وأصدقهم قولا وفعلا.... حسن اطلاع...حمدت سريرته..."(48) ولم يكتف أبو سالم بأوصاف البلدان والعلماء بل تعداه إلى الطبيعة، حيث يصف بعين

الرحالة الجغرافي " وأرض الحجاز معروفة بكثير من البرق، وكثير من الحجاج يصرون على أنها أنوار" (49) "ثم سرنا من ينبع إلى فناء في فضاء ورمال وآكام وجبال حتى وصلنا إلى الأبرقين وهي كناية على جبلين مفترقين أحدهما رمل صاعد، والأخر رملا وجلامد...."(50) هذه التوقفات الوصفية المتنوعة تعطي للسرد قيمة، وتكبح اندفاعه.

وقد تتجسد الاستراحة كتوقف زمني عند العياشي في مظاهر أخرى عدا المشاهد الوصفية فعلى سبيل المثال تعد الوقفات الشعرية المختلفة الأغراض استراحة، حيث تجعل القارئ والمتلقي ينسى السياق السردي، رغم أن هذه الوقفات الشعرية غالبا ما تكون مناسبة للحكي أو سرد الأحداث، منها قوله مناجيا ربه سبحانه وتعالى:

ياحي ياقيوم ياذا الجلال****صل على محمد ذي الجمال
مسلم عليه وارض عن اله****وصحبه أفضل صحب وآل
واغفر لذا العبـــد أوزاره **** وزكه في حـــــاله و المآل
وكن له عونا على دهـــره ****وحطه في دنـــــــيا ومال
وبلغ المأمول مـــن حجة ****وزورة بها المـــــــرام ينال
ويسر الأوبة في الأهل وفي **** عافية ليس لها مـــن زوال (51)

بالإضافة إلى توقفات أخرى عنونها أبو سالم ب (لطيفة)منها قوله" أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه.... أنهم سمعوا صوتا هائلا في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل..."(52) وهي الهدف الذي يتوخى العياشي بلوغه من ذكرها، رغم إقرارنا كما قلنا من قبل بالنسبة للمقاطع الشعرية بأن بعض هذه الغرائب واللطائف تمس السياق السردي وليست منفصلة عنه زمانيا.

– القطع :

ويلتجئ إليها السارد لتجاوز بعض الأحداث زمنيا ويكتفي بالإشارة إليها، لأن الراوي لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يلم بالزمن المرتبط بالأحداث إلماما كليا، فهي عملية تتيح له الاكتفاء بالزمن المناسب والمحوري المرتبط بسيرورة الأحداث، حيث يكتفي

بالإشارات الدالة فقط من ذالك قوله " ومرت سنتان أو انقضى زمن طويل، فعاد البطل من غيبوبته...الخ ويسمى هذا قطعا، والقطع إما أن يكون محددا أو غير محدد... فهو يسمح بإلغاء التفاصيل الجزئية التي كانت الروايات الرومانسية والواقعية تهتم بها كثيرا لذلك فهو يحقق مظهر السرعة في عرض الوقائع...."(53)

استعان العياشي بهذا الإجراء، حيث استخدمه لتجاوز الأحداث الجزئية والغير هامة، فمثلا في ذكر الخروج من المدينة المشرفة إلى مكة المعظمة..."ولما استهل شهر شعبان المكرم أعلنت القوافل في الخروج من المدينة إلى مكة ورجع من جاء من آهل مكة والطائف....."(54) وهو يذكر تاريخ الخروج مباشرة دون تمهيد لهذا الأحداث لأنه يراها غير ضرورية، وقوله في موضع آخر " فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال، خرج المحمل الشريف من القاهرة، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة ويجتمع له الناس في أطراف البلد "(55) فقد أحالنا العياشي إلى اليوم مباشرة وهو الحادي والعشرين، الذي هو زمن الحدث المفصلي المهم بالنسبة له.

وقد يشير عند دخوله لمدينة ما وتطرقه لمدة إقامته مثل قوله عند دخوله لمدينة واركلا " وكان دخولنا للمدينة عيشة الخميس وأقمنا بها يوم الجمعة واليومين الذين بعده... وفي الغد منها مررنا ببلدة يقال لها أكرك وهي أول بلد وادي ريغ ورحنا إلى بلدة مماسن،.....ثم ارتحلنا منها ودخلنا مدينة تكرت. ....."(56) فالإشارة بقوله واليومين التي بعدها، قطع الأحداث لعدم أهميتها، والانتقال السلس من مدينة إلى أخرى دون الدخول في تفاصيل زيارة كل مدينة كل ذلك يصب في عملية القطع الزمني.

– المشهد :

ويقصد به " المقطع الحواري الذي يأتي في كثير من الروايات في تضاعيف السرد، و المشاهد تمثل بشكل عام اللحظة التي يكاد يتطابق فيها زمن السرد بزمن القصة من حيث مدة الاستغراق، وإن كان الناقد جيرار جينيت ينبه إلى أنه ينبغي دائما أن لا نغفل

أن الحوار الواقعي الذي يمكن أن يدور بين أشخاص معينين قد يكون بطيئا..."(57) فالمشاهد تبرز أفكار السارد أو الراوي في تفاعله مع شخصيات القصة أو المتن السردي.

إن الطابع العام أو الشكل الفني للرحلة كنص سردي، يكون الراوي فيها مالكا لسلطة تجعله يتحكم في الأحداث ويسيرها وفق الغرض الذي يبتغيه، حيث نجد أنفسنا أمام خطاب أحادي إن صح التعبير، لذا فالمشهد بمعناه الدال على الحوار بين شخصيات مختلفة قد نجده ذا طابع خاص في الرحلة العياشية، فلنأخذ بعض المقاطع الحوارية التي تجسد ذلك " فلما وصلنا المدينة المشرفة دخلت المسجد النبوي يوم الجمعة فوجدت الزحام...وكان الشيخ اللقاني رضي الله عنه سبقني إلى المسجد.... فأجلسني بإزائه فلما اطمأن بنا المجلس سألته الدعاء لي ولأولادي أن يسلمنا الله، فقال لي أما أنت ترجع سالما و أولادك وأما أنا فأموت، فقلت له يا سيدي هذه حضرة الرسالة ادع الله أن يبلغك إلى أهلك فقال لهذا خرجت...."(58) وهذا مشهد حواري جمعه بأحد المشايخ بالمدينة، وهو حوار مباشر يتميز بالاختصار أي قلة الألفاظ وغزارة المعاني/ والملاحظ أن اغلب الحوارات التي تشتهر في ثنايا الرحلة العياشية كانت مع العلماء الذين لقيهم أبي سالم في الأماكن التي زارها ومنها:" لما لقيت الشيخ بمكة شاورته عما أرومه من المجاورة بالمدينة فحضني عليها ورغبني فيها، فقال لي...." وعندما حكي لنا شيخنا هذه الحكاية قال لي الشيخ وأنت إذ ذهبت إلى مكة فاعتمر عمرة عن أبينا آدم بهذه النية"(59).

هذه المشاهد الحوارية في أغلبها عفوية نابعة عن شخص هدفه لقاء أكبر عدد من الشخصيات وخصوصا العلماء والصالحين، وهي وإن كانت متناسبة مع بنية السرد إلا أنها تعطي للراوي والرحالة السلطة الكاملة للتحكم في طبيعته.

خلاصة القول :

إن الزمن في الرحلة العياشية له علاقة بكتابة النص الرحلي، وبالتالي يأخذ خصوصياته من زمن الكتابة إما بالاسترجاع أو التدوين الآني. والزمن في الرحلة العياشية في معظمه واقعي يستمد ديمومته من الواقع ،بحكم المشاهدة والمعاينة من قبل الرحالة، وهي على عكس السرود الأخرى التي يخضع فيها الزمن إلى الخيال مما يجعله مطاطيا ليس

له حدود تضبطه،وزمن الحكاية لا يمكن حصره فيلجأ الرحالة إلى عملية القطع لتجاوز الأحداث الغير مهمة والاكتفاء بما يناسب الحدث وان حاول الإلمام ببعض التفاصيل. فالزمان في الرحلة العياشية منتحل مأخوذ من القراءة وهو بين زمن الوقائع وزمن القول. ويبقى للغة السرد دور في إبراز زمن آخر وهو الزمن اللغوي المتمثل في توظيف الأفعال بدلالتها الزمنية مثل الماضي الحاضر. ..والزمن السياقي من خلال الكلمات الدالة على الزمن.

هوامش:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الفكر ، دط ، دت مادة رحل.

(2) أبو نصر الجوهري ، الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العالم للملايين ، بيروت ،دط 1987، ج6 مادة رحل.

(3) مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، ط2 1984، ص17.

(4) احمد الفاضل ، تاريخ وعصور الأدب العربي ، دار الفكر اللبناني ،دت ص54.

(5) عواطف يوسف تواب ، الرحلات المغربية والاندلسية، الرياض ، دط ،1996ص 30.

(6) أبو سالم العياشي، إتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء، دار الغرب الإسلامي ، ط1 1999م، ص25.

(7) أبو سالم العياشي،الرحلة العياشية تحقيق سعيد الفاضلي ، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات،ط1 2006،ص25.

(8) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،المدينة المنورة ، دط،2005، ص 201.

(9) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ص02.

(10) المصدر السابق ص:52،53.

(11) المصدر نفسه ص:53.

(12) ينظر زكي حسام الدين، الزمان الدلالي (دراسة لغوية لمفهوم الزمن وألفاظه، في الثقافة العربية ، دار غريب ، دط ، دت ، ص44

(13) ينظر المرجع نفسه 42[1].

(14) ينظر بول ريكور، الزمان والسرد، تر/سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1،2006، ج3،ص21.

(15) ينظر المرجع نفسه ، ص21.

(16) ينظر :المرجع السابق، ص23.

(17) ينظر: إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، اشراف د/عبد الله العشي –كلية الآداب والعلوم الإنسانية –باتنة،2005.م ص315.

(18) شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، تر/لحسن حمامة، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، 1995، ص71.

(19) د/ركان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، منشورا ت الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق – دط ،2011، ص340،3ن41.

(20) د/ حميد لحميداني، بنية النص السردي – المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع بيروت ، ط1،1991 – ص74.

(21) ينظر ،سماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، ص316.

(22) ينظر شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي ، ص71.

(23) المرجع نفسه، ص31

(24) د/ عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، دط ، 1998م ، ص201.

(25) ينظر":إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ، ص347.

(26) ينظر :المرجع نفسه –ص347،348.

(27) ابو سالم العياشي – الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ص107.

(28) المصدر السابق، ص107.

(29) المصدر نفسه ،107،134.

(30) المصدر نفسه ص 315.

(31) بول ريكو، الزمان والسرد ، ص154،155.

(32) ابو سالم العياشي ، ماء الموائد ، ص:328.

(33) المصدر نفسه ص 332.

(34) ينظر عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية –ص175.

(35) ينظر المرجع نفسه ص 178.

(36) ينظر عبد المجيد جحفة ، دلالة الزمن في العربية ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط1،2006م ، ص26.

(37) ينظر عبد الجبار توامة ، زمن الفعل في اللغة العربية ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1994،ص10

(38) ينظر –ابو سالم العياشي، ماء الموائد، ص 317.

(39) ينظر عبد الجبار توامة، زمن الفعل في اللغة العربية، ص10

(40) ينظر ، ابو سالم العياشي، ماء الموائد، ض 528،530.
(41) مصدر سابق ج1،ص27.
(42) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 201.
(43) ينظر المرجع نفسه، ص 178.
(44) انظر: المرجع السابق، ص76
(45) أبو سالم العياشي ، الرحلة العياشية(ماء الموائد)، ص74
(46) المصدر نفسه، ص196.
(47) حميد الحميدان، بنية النص السردي، ص 76.
(48) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)،135.[1]
(49) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، تر/محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة،ط2، 1997م، ص78.
(50) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية(ماء الموائد)، ص137.
(51) المصدرنفسه، ص303.
(52) المصدر نفسه ، ص305
(53) المصدر السابق ص ،210.
(54) المصدر نفسه ، ص141.
(55) حميد لحميداني ، بنية النص السردي ، ص 77.
(56) ابو سالم العياشي ، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ص151.
(57) المصدر نفسه، ص264.
(58) المصدر نفسه، ص114،119،120.
(59) حميد لحميداني ، بنية النص السردي ، ص78.